قراءة في كتاب"روح الحداثة" للفيلسوف المغربي "طه عبد الرحمن"

كتاب"روح الحداثة" من إصدارات "المركز الثقافي العربي" بيروت-الدار البيضاء، وضع فيه المؤلف لبنات الحداثة الإسلامية بعد كتاب "سؤال الأخلاق" الذي بسط فيه نقده للحداثة الغربية.

يسعى هذا الكتاب إلى أن يُبصِّر الحداثيين بما هم فيه من تقليد مُطبِق، لفتح فضاء الإبداع، وذلك عن طريق التفريق بين ما يصفه المؤلف بـ"روح الحداثة التي ينبغي حفظها" و"واقع الحداثة الذي يمكن تركه إلى واقع غيره لا يقلُّ عنه حداثة".كما يسعى طه عبد الرحمن من خلال عمله هذا إلى أن يُخرج "التراثيين" بدورهم مما هم فيه من تقليد مُعيق، لفتح فضاء الاجتهاد لهم، وذلك عن طريق تطبيق روح الحداثة على مقتضى التداول الإسلامي. وفي هذا الشق الثاني رد صارم على تهمة الأصولية الفلسفية التي وجهها أحد الباحثين لفيلسوف الأخلاق طه عبد الرحمن.أما الكتاب في مجمله فيؤسس لقراءة تفكيكية مغايرة بالمرة مع القراءات العربية والإسلامية التي تطرقت لموضوع الحداثة.

الهمة الأخلاقية أقوى

يرى طه عبد الرحمن في كتاب"روح الحداثة، بلغ تعلق النقاد العرب بالحداثة الغربية أن توهموا أنها واقع لا يزول، وحتمية لا تحول، وأنها نافعة لا ضرر فيها، وكاملة لا نقص معها، فحجَبهم هذا التعلُّق عن أن يتبيَّنوا ما في كتابه السابق "سؤال الأخلاق: مساهمة في نقد الحداثة الغربية" من أصول أخلاقية مصحِّحة لمسار هذه الحداثة لم يقلّد فيها أحدا، ونذكر منها الأصول التالية:

أن الأخلاق صفات ضرورية يختل بفقدها نظام الحياة لدى الإنسان، وليست هي مجرد صفات عرضية أو كمالية لا يقدح تركُها إلا في مروءته.

أن ماهية الإنسان تُحدِّدها الأخلاق وليس العقل، بحيث يكون العقل تابعا للأخلاق.

أن الأخلاق مستمدة من الدين حتى إنه يحكم بالتناقض على قول القائل: الأخلاق العلمانية.

أن الإنسان بموجب أخلاقيته، لا يستطيع أن يتجرد كليا من حال التدين ولو سعى إلى ذلك ما سعى.

أن الهمة الأخلاقية للإنسان أقوى من الأمر الواقع.

فيما يتعلق بكتاب "روح الحداثة"، فمداره على الأطروحة التالية: كما أن هناك حداثة غير إسلامية، فكذلك ينبغي أن تكون هناك حداثة إسلامية. فلا يعقل أن يتقرر في الأذهان أن الحداثة تأتي بالمنافع والخيرات التي تَصلُح بها البشرية، وأن تتحقق هذه المنافع والخيرات في الأعيان، ثم لا يكون هذا الجزء النافع منها متضمنا في الحقيقة الإسلامية؛ خاصة أن الزمن الإسلامي يبقى بمنزلة الزمن الأخلاقي الذي تتحقق فيه ظاهرة الحداثة والذي يتمّم ما نقص في سابق الأزمان من المكارم. تذكروا القول النبوي الشهير: "إنما بُعِثت لأتمم مكارم الأخلاق".

ويضيف الدكتور طه أن كل دين مُنزل يَمدُّ الإنسان بأسباب الصلاح في دنياه، فضلا عن أسباب الفلاح في أخراه؛ ويخلص إلى ضرورة دخول الحداثة الصالحة في الممارسة الإسلامية.

روح الحداثة وواقعها

بسط المؤلف في المدخل التنظيري العام الأصول التي تتأسس عليها نظريته في الحداثة والقائمة على: التفريق بين روح الحداثة وواقع الحداثة، وتتكون هذه الأصول العامة من ثلاثة مبادئ تتحدد بها روح الحداثة ، وهي:

مبدأ الرشد: الذي يتكون من: الاستقلال والإبداع.

ومبدأ النقد: الذي يتكون من: التعقيل والتفصيل.

ومبدأ الشمول: الذي يتكون من: التوسع والتعميم.

وبعد أن فرغ من التنظير، استعرض عمليات التطبيق الإسلامي لروح الحداثة في حالات معينة التزم في انتقائها بما يصف معيار النموذجية المُثْلى، ومقتضاه أن الحالات المختارة ينبغي أن تكون أفضل النماذج التي يمكن أن يُجرَى عليها هذا التطبيق.يتفرع الكتاب إلى ثلاثة أبواب، واختص كل باب بتطبيق مبدأ واحد من المبادئ الثلاثة لروح الحداثة على حالتين نموذجيتين، كل حالة تطبّق ركنا من ركني هذا المبدأ.وهكذا تفرَّد الباب الأول بتطبيق مبدأ النقد على نموذجين أمثلين، خصَّص لكل منهما فصلا مستقلا، وهما نظام العولمة ونظام الأسرة الغربية.وتولى الباب الثاني تطبيق مبدأ الرشد على نموذجين أمثلين دائما، وهما الترجمة الحداثية والقراءة الحداثية للقرآن. والحق أن هذا الفصل يأتي في زمانه، بحيث نكاد نعجز عن حصر عدد المحاضرات والندوات التي نظمت خلال السنين الأخيرة حول موضوع القراءات الحديثة أو الحداثية للقرآن.واختص الباب الثالث بتطبيق مبدأ الشمول على نموذجين أمثلين كذلك، وهما حق المواطنة وواجب التضامن.

لا شك أن التصنيف الجديد الذي وضعه طه عبد الرحمن للترجمات في الفصل الأول من الباب الثاني ما بين ترجمة منطقية وترجمة دلالية وترجمة تركيبية يحيل متتبع أعمال هذا الفيلسوف إلى علاقته بالتصنيف الوارد في الجزء الأول من كتاب "فقه الفلسفة: الفلسفة والترجمة" حيث الحديث عن ترجمة تحصيلية، وترجمة توصيلية، وترجمة تأصيلية.

ولا شك أيضا أن المطلع على هذا المدخل المهم بالذات، سوف يندهش أو يُستفز عندما يجد أن طه عبد الرحمن لم يذكر المبادئ التي اشتهر تداولها في أوساط الدارسين لظاهرة الحداثة مثل مبدأ العقلانية ومبدأ الذاتية ومبدأ الفردانية ومبدأ الإنسانية ومبدأ الحرية ومبدأ العلمانية وغيرها، حيث يعُدُّ طه عبد الرحمن بعض هذه المبادئ متفرعا على المبادئ التي ارتضاها، وبعضها يدخل ضمن ما يسميه مُسلمات التطبيق الحداثي الغربي.

وأحد هذه المبادئ المبتذلة، يضيف مبدأ العقلانية الذي غلب على الدارسين من العرب والمسلمين أن يجعلوه المبدأ الأساسي المحدد لحقيقة الحداثة، مقلدين في ذلك أساتذتهم من نقاد الغرب، والواقع أن العقلانية تندرج ضمن الأصول الثلاثة التي أخذ بها المؤلف في تحديد روح الحداثة، حيث تندرج في مبدأ النقد باعتبارها وسيلة له، وتندرج في مبدأ الرشد باعتبارها أصلا له، وتندرج في مبدأ الشمول باعتبارها سببا فيه؛ مما يُخوِّل له الاستغناء عنها كمبدأ مستقل بنفسه، إذ تنزل رتبة غير رتبتها، فهي أعم، وهذه المبادئ أخص؛ والذين جعلوا العقلانية واحدا من مبادئ الحداثة إنما وقعوا في تضييق مدلولها، حتى حصروها في النظر الآلي أو الأداتي وحده، مع التذكير بأن العقلانية لم تختص بها الحداثة الغربية كما يُزعَم، ولا لها شكل واحد ولا لها مرتبة واحدة، بل إنها ظلت كل يقظة حضارية تَحقَّق بها الإنسان على مدى تاريخه الطويل. وبالنسبة لتخصيص الحداثة بها، فهو خطأ ناتج عن التقديس الذي أحاطه بها بعضهم.

الحداثة تُبتَكر من الداخل

وتتفرع على طبيعة التعريف الذي ساقه المؤلف لروح الحداثة عدة أمور نوجزها في النتائج التالية:

كون روح الحداثة تختلف عن واقع الحداثة.

وأن واقع الحداثة الغربية هو واحد من التطبيقات الممكنة لروح الحداثة.

أن روح الحداثة متأصلة إنسانيا وتاريخيا.

أن الأمم الحضارية كلها تستوي في الانتساب إلى روح الحداثة.

أن واقع المجتمعات الإسلامية هو أقرب إلى الحداثة المُقلِّدة منه إلى الحداثة المبدِعة.

أن الحداثة لا تُنقل من الخارج، وإنما تُبتَكر من الداخل.

وأخيرا، كون ابتكار الحداثة الإسلامية الداخلية يستلزم إبطال المسلمات التي صاحَبت تطبيق الغرب لروح الحداثة، وأدخلت عليه آفات تختلف باختلاف أركان هذه الروح، ولا يسعنا إلا أن نسرد استشهادا موجزا لهذا الإبطال، وجاء في ست نقاط:

إبطال مُسلّمات الاستقلال الغربي: وصاية الأقوى ليست عناية بالأضعف، والوصاية في الداخل قد لا تكون وصاية رجال الدين.

وإبطال مسلمات الإبداع الغربي؛ فالإبداع لا يقتضي الانقطاع المطلق؛ لأن الحداثة الحقة هي حداثة قِيَم لا حداثة زمن.

وإبطال مسلمات التعقيل الغربي؛ لأن العقل لا يعقل كل شيء.

وإبطال مسلمات التفصيل الغربي لا إطلاق في الفصل بين الحداثة والدين، ولا إطلاق في الفصل بين العقل والدين ولا محو للقدسية من أفق الإنسان.

وإبطال مسلمات التوسع الغربي: التطبيق الغربي لروح الحداثة ليس واقعا حتميا؛ لأن الإنسان أقوى من هذا التطبيق.

وأخيرا، إبطال مسلمات التعميم الغربي: روح الحداثة لا توجب التفكير الفرداني، والحداثة العلمانية لا تحفظ حُرمة الأديان، وليست كونية قِيَم الحداثة الغربية كونية إطلاقية، وإنما كونية سياقية.

لماذا الحداثة الإسلامية؟

لِمَ الاشتغال بالتطبيق الإسلامي لروح الحداثة، وقد انتقلت الإنسانية من طور الحداثة إلى طور ما بعد حداثة؟ اعتراض مشروع على الأطروحة الناظمة لكتاب "روح الحداثة"، وقد خُصِّصت خاتمة أحدث مؤلفات طه عبد الرحمن وجاءت تحت عنوان سؤال المشروعية للرد على ذلك، ويجيب الدكتور "طه" عن هذا الاعتراض على أربع مراتب هي:

كيف أن الأمة الإسلامية تحتاج إلى أن تتعامل مع المفاهيم المخترَعة التي شاع تداولها عند الأمم الأخرى، وأن تخرّجَها على قواعد مجالها التداولي، بدءا من الحداثة وما بعد الحداثة.

وكيف أن مفهوم ما بعد حداثة ليس له معنى واحد، وإنما له معان عدة.

وكيف أن وجود الطور الحداثي والطور ما بعد الحداثي يقضي بافتراض أصل مشترك ينبنيان عليه، وهذا الأصل هو بالذات روح الحداثة.

وأخيرا كيف أن التطبيق الإسلامي لروح الحداثة لا يكتفي بأن يكون واحدا من تطبيقاتها الممكنة، بل أيضا يهدف إلى الارتقاء بالفعل الحداثي.

وبعد أن فرغ من بيان هذه المراتب الأربع، يخلص إلى أن الاشتغال بالتطبيق الإسلامي لروح الحداثة اشتغال لا يقل مشروعية عن الاشتغال بالتطبيق الغربي لهذه الروح.

منتصر حمادة